

طهاد العلويين في لبنان



تكفير العلويين واقع تاريخي ولا ينحصر بتكفير السنة لهم (أرشيف)

كان موجهاً ضد العدو الإسرائيلي واعوانه . بيانات تنديد، وتقوم الأمانة العامة لـ 14 آذار (وجلساته مفتوحة منذ سنوات) بإصدار فرمان استنكار. لكن ماذا عن تداول فتاوى هدر دم العلويين في لبنان ونشرها في مناشير؟ أكثر من ذلك، لو أن الحملة على العلويين في لبنان موجّهة ضد من تبقى من الجالية اليهودية في لبنان (والتي تعرّضت لاعتداءات مهينة ومشينة في الثمانينيات وأصابت أيضاً من كان يُسمى «طبيب الفقراء» بينهم)، لأصدر الليبراليون في لبنان والعالم العربي بيانات التنديد ولطالبوا حلف شمالي الأطلسي بالإغارة على متهمين بالفعل فوراً. وفريق الممانعة الذي يخاف الفتنة (وكانه نجح في تفاديها بخطه الغبية الواحدة تلو الأخرى)، بسبب تركيبة النظام السوري وحزب الله الطائفية، صامت هو أيضاً. إنني أتهم كل الفرقاء في لبنان والمجتمع المدني المرتبط إما بالنفط والغاز أو بمعايير المجموعة الأوروبية بالصمت عن حملة عنف يتعرض لها العلويون في لبنان. كيف يمكن السكوت عن القصف العشوائي والقنص الذي يتعرض له جبل محسن بمجرد أن يشعر ليبرالي أو سلفي في طرابلس بالحقق؟ وإلى متى تُبث التقارير عن «اشتباكات» في طرابلس من جهة واحدة فقط، وكان جبل محسن هو المعتدي، مع أن توقيت بدء الاشتباكات في طرابلس يتزامن دائماً وأبداً مع غضب سلفي طرابلس وحريته من الأسباب. وكأذيب سلفي طرابلس وحريته تمر في الإعلام مثل أكاذيب رئيس بلدية عرسال عن صيد الأرناب ليلاً ونهاراً في الجرد على الحدود السورية، وهي مثل أكاذيب عقاب صقر عن تهريب الحليب إلى سوريا ومثل أكاذيب سلفي طرابلس عن المجموعة المقاتلة في تل كلخ (أنهم تسربوا في جنح الظلام بهدف الإسعاف). يريد السلفيون ومن يروج لهم في وسائل إعلام لبنان أن نصدق أن أهل جبل محسن يختارون لحظات يكون فيها الغضب العارم معتمراً في صدور أهل باب التبانة، مثل اغتيال وسام الحسن أو مقتل الشيخ عبد الواحد، كي يبدأوا هكذا فجأة بقصف باب التبانة. يريد السلفيون في لبنان منا أن نصدق أن الأقلية العلوية المحاصرة في جبل محسن تصر باستمرار على استفزاز باب التبانة كي تزيد من عزلتها ومن حصارها. إنني أتهم كل وسائل الإعلام في لبنان بالتورط في دعاية عنصرية حادة ضد العلويين في لبنان، الذين - خلافاً لليهود في لبنان - لا يحظون بأي تغطية سياسية من أحد (لأسباب بانث أعلاه، بينما كان اليهود يحظون بتغطية ورعاية سياسية من حزب الكتائب الذي كان يحصل على معظم أصوات اليهود - راجع «الانتخابات النيابية: 1972، بالأرقام والنسب المئوية»). إن الثقافة الشعبية والسياسية اللبنانية تغطي عملية قمع العلويين واضطهادهم، ومنظمات حقوق الإنسان - خصوصاً مثل فرع بيروت من «هيومن رايتس ووتش» - لا ترفع صوتاً أو همساً للتنديد، فيما تصدر المنظمة المذكورة بيانات شبه يومية ضد النظام السوري (ويستحق هذا النظام كل التنديد)، مما يشير إلى تناغم بينها وبين مكتب الحريري الإعلامي في بيروت. هل سننتظر أن تتطور ممارسة تكفير العلويين إلى مرتبة حرب إبادة ضدهم في لبنان (وفي سوريا في وقت لاحق إذا وصل سلفيو قطر والسعودية إلى السلطة)؟

للمطائفة العلوية في سنوات سيطرة النظام السوري في لبنان ضئيلاً بالرغم من نفوذ ميليشيا علي عبيد، الذي استفاد من علاقته بالنظام السوري دون أن يكتثرت لتحسين وضع الطائفة في النظام الطائفي. كما أن ممارسات ميليشيا كانت بسوء ميليشيا جنبلاط وبزي في الحرب الأهلية. لكن لم يكن كل العلويين مرتبطين بالنظام السوري، وقد انضوى كثير منهم في صفوف المنظمات اليسارية التي صارت النظام السوري في عام 1976 وما بعده. إنني أتهم. يتعرض العلويون في لبنان بصمت لحملة لا تختلف عما تعرض له اليهود في حقبة الصعود النازي في ألمانيا. لقد شهدت طرابلس أكثر من مزة على امتداد العام الماضي ما اصطلح على تسميته في التاريخ الألماني «ليلة البلور» المكسور، حيث تعرضت محال اليهود للتكفير

قضاء صور عام 1886) دوراً في هذا التواصل الجديد لكن الخلاف العقائدي لم يخف أو يزل. وبعد إنشاء الحكم الإسلامي في إيران، بدأ العلماء الشيعة بالتوافد إلى المناطق العلوية لنشر المبادئ والتعاليم الإثني عشرية بينهم. وبالمفهوم العقائدي، فإن العلويين هم شيعة «مضللون» بسبب عزلتهم والقمع الذي تعرضوا له (وكان العلوية فكرة متأخرة). طبعاً، لم يحذ علماء العلويين هذه الفكرة الفوقية عن ضلالهم المفترض وخصوصاً أنهم يعتبرون شيعتهم صافية غير متأثرة بالفكر السني. لكن الجدل النظري الفقهي لم يكن سهلاً ولا سيما أن العلويين، مثل سائر الفرق الباطنية، لا يعممون فكرهم ويفرّقون حفاظاً على السرية بين العامة والخاصة من حيث الإطلاع على مبادئ الفكر. لكن من يجادل في رغبة بعض الطوائف في «الاستتار بالمألوفا»؟

لكن دعوة العلويين إلى الانضمام للعبادة الشيعية الإثني عشرية حصلت بمبادرة سياسية من موسى الصدر، الذي كان من أوثق حلفاء النظام السوري في التاريخ المعاصر (ينسى ذلك متحذلقو الليبرالية في 14 آذار). لكن الخلط بين العلويين والشيعة الإمامية ليس سهلاً لأنه كان على موسى الصدر تجاهل أمور العقيدة (تأليه علي) وأمر الممارسة (ترك أركان الصوم والصلاة) بالإضافة إلى مفاهيم أخرى (استنساخ الأرواح). طبعاً، يشوب الإعلان العلوي ملامح من التقيّة لكن من القمع التشكيك بما تعلنه فرقة ما في الدين لأن في ذلك الحكم رؤية بمنظار فرقة أخرى سائدة. لكن موسى الصدر ساهم في الترويج لتقبل العلويين بين الشيعة رغم الخلافات التي لم تحل، إلا سياسياً وبيانياً.

ولقد أضّر العلويين في لبنان هذا الربط الاعتباري بينهم، كطائفة وكأفراد، وبين النظام السوري خصوصاً في سنوات سيطرته في لبنان. والنظام السوري لم يعبأ بالعلويين ولم يتحسن وضعهم في تلك السنوات. والتحسن الطفيف في وضعهم تم بشق النفس. صحيح أن اتفاق الطائف وعد للمرة الأولى بتمثيلهم في المجلس النيابي ومؤسسات الدولة، لكن القانون الخاص بهم لم يمر في المجلس النيابي إلا عام 1995. وليس هناك من يرى أن قادة الطوائف المتحالفة مع النظام السوري (من أمثال نبيه بري ووليد جنبلاط ورفيق الحريري) استفادوا من النظام السوري بدرجة أقل مما استفاد منه قادة العلويين في لبنان. كان الحضور السياسي

أرجاء العالم العربي وخصوصاً أن الوهابية - العقيدة الرسمية في قطر والسعودية - تكفر الشيعة فما بالك بالنصيرية) ضد كل العلويين. وفتوى ابن تيمية الشهيرة بانث نبراساً دينياً لكل من يريد تسوية الكراهية أو القتل ضد كل العلويين. إن تيمية لم يوارب في فتواه، فهو يقول: «هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكثر من اليهود والنصارى، بل وأكثر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم...». وقد تعرّض العلويون إلى حملات اضطهاد على مرّ القرون بما فيه العهد العثماني.

لكن الحديث عن السكوت اللبناني الشامل، والذي يعمّ كلا الفريقين في لبنان، يتعلّق أيضاً بالعداء الديني العقيدي. والتكفير السني للعلويين بات مَعَمَّماً في كل وسائل إعلام النفط والغاز، لكن العداء الشيعي الإمامي للعلويين - من زاوية العقيدة - يحتاج إلى بعض الشرح للمساعدة في فهم سبب هذا السكوت العام والمدوّي في لبنان عن قمع العلويين واضطهادهم. بادئ ذي بدء، الطائفة العلوية ليست جديدة أبداً في التاريخ الإسلامي العام وهي تتحدّر من فرق غلاة الشيعة التي تعود إلى التاريخ المبكر للإسلام. وكانت الشيعة الإمامية تعتبر مُبَكِّراً (القرن العاشر والحادي عشر) أن النصيريين هم كفار. ويقول زميل خبير في التاريخ الشيعي (لا يريد الإفصاح عن اسمه) إن الصمت وعدم التواصل شاب العلاقة بين الشيعة الإثني عشرية وما اتفق على تسميته لاحقاً بالعلويين. واستمرّ عدم التواصل بين الفريقين (والحكم الأخلاقي - الديني المتبادل، أي أن الشيعة الإمامية كفرت العلويين فيما اعتبر العلويون أنهم هم يمثلون الشيعة الحقّة وأن الشيعة الإمامية تأثروا بالفكر السني وقتلوا من شيعتهم أو أنهم ذهبوا بعيداً في «تقدس» الحسين) لقرون عديدة حتى أواخر القرن التاسع عشر. وبدأ الاكتشاف الشيعي أو التواصل مع العلويين عبر علماء النجف الذين أخذوا يتواصلون مع تلاميذ علويين بدأوا بالتوافد إلى مدارس النجف. وبدأت اللقاءات بين رجال الدين العلويين (من أمثال سليمان الأحمد) ورجال الدين الشيعة مما أدى إلى بروز نزعة شيعية لـ «تصحيح» مفاهيم العلويين. وقد لعب العالم اللبناني حبيب آل إبراهيم («المهاجر العاملي» المولود في حناوي من

النظام السوري لم يعبأ بعلويي لبنان ولم يتحسن وضعهم خلال الوصاية

والحرق وحيث تعرض أفراد يهود للاعتداء. لقد تعرّضت كل متاجر العلويين في طرابلس للحرق والتلف أو السرقة وهجر أصحابها بالقوة منها. هي «اليالي البلور» المكسور: أليس هذا ما تعرّض له العلويون في مدينة طرابلس بالرغم من صمت المجتمع المدني ومنظمات حقوق الإنسان المحلية التي لا تفتح فاهها دون ورود إذن من الرجل الأبيض في أوروبا؟ لقد قام بعض أهل طرابلس بالتهجير العنفي لعلويين قطنوا بينهم لعقود وقرون ولم يصدر صوت مُعترض من طرابلس كلها. والطريف أن أبواق آل سعود وآل الحريري وآل ثاني من الليبراليين في مواقع «ناو حريري» و«ناو كبنارة» و«ناو مدن الملح» يعتبرون أن معاداة السلفية في لبنان تنم عن تعصب (أو حتى رهاب) ضدّ الإسلام والسنة. وعليه، يجب، بمقياس هؤلاء، محاسبة السلفيين حتى في كراهيتهم وفي نظرتهم الدونية للمرأة ولكل «الغير». هل تفرّغ الليبراليون والليبراليات بكلمة ضد اضطهاد العلويين والدعوات العلنية لقتلهم؟ لو تعرّض واحد من أبواق عائلة الحريري في لبنان لثبتيمة على فايسبوك لقامت الدنيا ولم تقعد، ولأصدرت منظمة «إعلاميون ضد العنف». إذا

إن القصف والقنص المستمر، والمزاجي تبعاً لتقلبات أهواء سلفي باب التبانة وحريته، يستحق الإدانة، وخصوصاً أن الدولة اللبنانية لم تعن يوماً بحقوق العلويين - لا كطائفة من الطوائف ولا كمواطنين ومواطنات في بلد الطوائف. وأسباب صمت الجميع في لبنان، ولا سيما الذين واللواتي يتشدقون صباحاً ومساءً بشعارات فارغة عن الحرية وعن حقوق الأقليات، متعلّقة بفساد الليبرالية اللبنانية (والعربية). هناك من يخاف رفع الصوت للدفاع عن حق العلويين خوفاً من الارتباط بالنظام السوري الذي تسيطر عليه أسرة علوية. إن التمييز ضد العلويين في لبنان وتغيب حقوقهم بدأ قبل وصول حكم الأسد إلى دمشق وقبل اندلاع الصراع في سوريا. هذا شأن يتحمّل مسؤوليته لبنان، حكومات ومؤسّسات ومجتمعاً تمرّس في العنصرية والطائفية. إنني أتهم. إن مسخ الوطن يرتكب جريمة اضطهاد عنيفة ضد طائفة بحالها والصمت سائد بين المواطنين والمواطنات. العلويون: بشرّ هم، في القانون والعرف اللبناني؟

* كاتب عربي (موقعه على الإنترنت: angryarab.blogspot.com)